

هذا المصير الأسود للديمقراطية صلاح الدين حافظ الخليج 4-7-2007

صلاح الدين حافظ

لم أسمع أسوأ ولا أسخف من تلك النكتة التي أطلقها الرئيس الأمريكي جورج بوش الأسبوع الماضي، حين قال إنني أسعى وأريد عراقاً ديمقراطياً على غرار "إسرائيل". وسخافة النكتة تعود أولاً إلى أن قائلها هو بوش الموروث عسكرياً في العراق، وتعود ثانياً إلى إبحائها بأن العراق قد استقر، في نظر بوش، وها هو يبني نموذجاً ديمقراطياً جديداً، ثم تعود ثالثاً إلى أن الرئيس الأمريكي لم يجد في جعبته سوى النموذج "الديمقراطي" "الإسرائيلي" ليتطلع إليه، ويتخذ نموذجاً ومنهجاً ونبراساً.. وهو النموذج الاستعماري الكلاسيكي. أما سوء النكتة، فيكمن في أن الرئيس المبعوث رسولاً للديمقراطية، يريد منا نحن باقي الدول العربية، أن نتعلم من التجربة "الديمقراطية" العراقية، لنقلدها ونحاكيها ونسير على خطاها، إن كنا قد فشلنا في محاكاة النموذج "الإسرائيلي".

ولكي نثبت أن النكتة سخيفة وسينة معنى ومبنى، علينا أن نعيد تقليب الأوراق وتقلب الأحداث، لنذكر هل نجح الرئيس الوكيل الحصري للتبشير بالديمقراطية في المنطقة، في بناء نموذج ديمقراطي يحتذى في العراق، ويحاكي بالتالي النموذج الديمقراطي في "إسرائيل"، أم أن الورطة التي أثبتت الخيبة هي المحصلة النهائية حتى الآن على الأقل؟

كان هدف الإطاحة بالنظام الدكتاتوري لصادق حسين، إقامة بديل ديمقراطي في العراق، أحد ثلاثة أهداف استراتيجية، أعلنها الرئيس بوش في بدايات عام 2003 تمهيداً لغزو العراق واحتلاله ابتداءً من مارس/ آذار من العام المذكور. والثابت حتى الآن أنه نجح في تحقيق الجزء الأول من الهدف، وهو إطاحة صدام حسين وحكمه، ولم يستطع أن يحقق الجزء الثاني وهو إقامة نظام ديمقراطي بديل، لأن الاحتلال الأمريكي بعد أن دمر البلد خلق مقاومة مسلحة عنيفة، وأيقظ كل المشاعر الوطنية في الشعب العراقي باستثناء جماعات المتأمركين والمستفيدين.

يتفاخر صناع السياسة الأمريكية الآن، أنهم أقاموا حكماً ديمقراطياً في العراق لأول مرة، ولا أدري كيف ومتى تم ذلك؟ نعرف أن انتخابات عامة قد جرت وأن برلماناً قد تم انتخابه، وأن حكومة تشكلت من قوى الأغلبية.

مما يوحي للوهلة الأولى ولمن لا يتعمق في قراءة الوقائع، بأن هناك بالفعل حكماً ديمقراطياً يسيطر على العراق من شماله إلى جنوبه، ومن شرقه إلى غربه.

غير أن الوقائع تقول غير هذا بداية إن الانتخابات قد تمت تحت الاحتلال الأجنبي مما يفقدها الشرعية أساساً، وإن هذه الانتخابات أفرزت برلماناً وحكومة طائفية، يرتكز كلاهما على التوزيع الطائفي والعرقي (سنة وشيعة وأكراد وتركماني وأشوريين.. إلخ).. ترسيخاً لتفكيك الوحدة الوطنية.

وها هي الحكومة تمارس حكماً طائفيًا بوضوح، وتدفع سياستها إلى تقسيم الوطن العراقي إلى شمال كردي وجنوب ووسط شيعي وجزء من الوسط والغرب سني التوجه والمذهب، وهي في الواقع حكومة تحتتمي مع البرلمان في المنطقة الخضراء بقلب بغداد المحمية بالقوات الأمريكية، بينما الأمن وشؤونه في مجمل البلاد، لا يزال في أيدي قوات الاحتلال.

والمعنى الذي نريد أن نبرهن على وضوحه، هو أن العراق يفتقد شرعية الاستقلال والسيادة الوطنية، وتفتقد مؤسساته الرئيسية، خصوصاً البرلمان والأحزاب والحكومة والأمن والجيش الشرعية الوطنية. الأرض ممزقة تحت التقسيم الطائفي والعرقي، والدولة غائبة تفتقد السيادة بالمعنى القانوني، والشعب ممزق بين القتل والقتال، والدولة المخالفة على الاحتلال لا تستطيع حمايته، وأكثر من خمسة ملايين هاجروا للخارج عبر الحدود، مع مليونين آخرين هجروا في الداخل، في ظل "التطهير الطائفي والمذهبي" الجاري على قدم وساق.

فأي نموذج للديمقراطية هذا بينه الرئيس بوش في العراق، بل أي مستقبل لمثل هذه الديمقراطية، إذا كان بوش لا يزال غارقاً في المستنقع الدموي العراقي من دون بادرة لنهاية مشرفة له، فضلاً عن أية إشارة للانتصار وإن طال الزمن.

قبيل أيام من انتخابات الكونجرس في نوفمبر/ تشرين الثاني من عام 2006، كان بوش يردد كمن يهذي بأن أمريكا ربحت الحرب ضد الإرهاب وحقت انتصاراً واضحاً في العراق. وما إن قلبت نتائج تلك الانتخابات كل

الموازنين بفوز كاسح للحزب الديمقراطي خصم الرئيس بوش وحزبه الجمهوري، حتى عاد بوش وانقلب على قوله الأول، فأعلن في حوار شهير أجرته معه جريدة "واشنطن بوست" في 20 ديسمبر/ كانون الأول الماضي، أننا لا نكسب الحرب في العراق، ولكننا لا نخسرهما!

هذا إذن اعتراف أمريكي صريح بفشل 150 ألف جندي أمريكي في كسب الحرب في العراق، فشل عسكري يؤدي بالضرورة إلى فشل سياسي، وإن كان قد حقق نجاحاً اقتصادياً عبر سرقة واحتكار الثروة النفطية العراقية الهائلة.

فإن لم تحقق الترسانة العسكرية الأمريكية الهائلة أي انتصار حتى العام الرابع لاحتلال العراق، وتضمن الأمن والاستقرار في البلاد على الأقل، فكيف للإدارة السياسية الأمريكية أن تحقق نجاحاً في بناء نموذج ديمقراطي، أو على الأقل وضع بذوره الأولى في التربة العراقية. والديمقراطية كما نعلم عملية سياسية اجتماعية ثقافية طويلة المدى!

يتصور المحيطون بالرئيس بوش، من بقايا المحافظين الجدد المهزومة، أن إجراء انتخابات وتشكيل برلمان وحكومة في العراق، دليل واضح وبرهان ساطع على بناء ديمقراطية، وهذا وهم وتدليس سياسي من الدرجة الأولى، يحاولون به إقناع الرأي العام الأمريكي أولاً، بنجاح سياستهم في ترويج القيم الديمقراطية الأمريكية وزرعها في العراق، ليكون نموذجاً جاذباً لباقي الدول العربية.

وهنا تدخل حكاية السير على خطى الديمقراطية في "إسرائيل"، التي يحلم بها الرئيس بوش مباشرةً وهواياً ومتعبداً في محرابها، إنه يخاطب المشاعر والعواطف الأمريكية لتسانده وتدعمه، حين يذكرها "بالنموذج الديمقراطي الإسرائيلي"، الذي نجحت "القوة اليهودية" بأذرعها ومنظماتها الصهيونية، في زرعه في الوجدان الشعبي الأمريكي، وإقناع قطاعات واسعة من الرأي العام، بأن قيام دولة "إسرائيل" تمهيد لعودة المسيح عليه السلام وشرط من شروط قيامته، وبأن "إسرائيل" تحاكي النموذج الأمريكي تمام المحاكاة، من حيث النشأة والتأسيس والهجرة والقيم والثقافة والتقاليد، وكذلك النموذج الديمقراطي.

معظم الرأي العام نشأ وتعلم وتثقف، على هذه المشاعر والموافق تجاه "إسرائيل"، فهي جزء من كبد أمريكا وعين لها في قلب الشرق الأوسط، الذي هو قلب العالم ومخزنه النفطي، نموذج ديمقراطي يكرر ويحاكي النموذج الأمريكي حين كان حلماً يتويهاً مثالياً يهيم في خيال المهاجرين الأوائل، وهم يحتلون الأرض الجنة الجديدة، ويقيمون المستوطنات المستعمرات، ويقاثلون أهل البلاد الأصليين ويبيدونهم من أجل بناء الجنة الموعودة! وما فعله المهاجرون الأوروبيون في أمريكا، فعله المهاجرون اليهود في فلسطين باسم الحلم الصهيوني في أرض الميعاد.

بوش حين قال الأسبوع الماضي إنه يسعى لبناء عراق ديمقراطي على غرار النموذج الديمقراطي "الإسرائيلي"، كان يخاطب العواطف الأمريكية من دون أن يجرؤ على مخاطبة العقول الأمريكية، لأن هذه تدرك حجم الورطة العسكرية الدامية في العراق، ومدى خسائرها بل وعمق تأثيراتها على مستقبل الحياة السياسية في أمريكا ذاتها.. حين تضطر صاعرة للانسحاب في نهاية المطاف، بلا حرب انتصرت وبلا ديمقراطية زرعت!

حكم التاريخ حتماً سيحري على الاحتلال الأمريكي للعراق، كما جرى على احتلال الامبراطوريات الاستعمارية الغربية القديمة، انسحبت صاعرة واستقلت الشعوب والدول التي خضعت زمنياً للغزو والاحتلال.. وحينئذ سترتد النتائج العكسية على أمريكا في الداخل، لتحاسب نفسها كما سبق لها أن فعلت بعد حربها المريرة في فيتنام وكوريا وغيرها من حروب الغزوات الخارجية.

لكن تبقى المأساة متحكمة في تفكير الرئيس بوش، متحكمة في سياساته الفاشلة، سواء في الحرب أو في نشر الديمقراطية، بعنجهية القوة المسلحة المغرورة الباطشة الطائشة، والخشية أن يستغل ما تبقى له في عرش الرئاسة من شهور قليلة، ليتوهم إقامة نموذج ديمقراطي آخر، غير نموذج العراق، وعلى غرار النموذج "الإسرائيلي"، الذي لم يعد في العالم من هو أسوأ منه عدوانية وتعصباً ومعاداة لكل معاني الديمقراطية والدليل الحي هو ما يفعله الآن ضد الفلسطينيين.

أما المأساة الكبرى والأفدح، فهي أن البعض منا "منهم" لا يزال يأمل خيراً، في وعود الرئيس بوش وتعهدهات بإقامة ديمقراطية في بلادنا.. على غرار النموذج العراقي الدامي والنموذج "الإسرائيلي" المدمي! إن كانت حرب بوش مغامرة، فديمقراطية بوش مقامرة، والرهان عليهما خاسر من البداية للنهاية يا أولي الألباب..